

العنوان:	التجربة الأخلاقية عند ابن حزم الأندلسي
المصدر:	دراسات عربية وإسلامية
الناشر:	جامعة القاهرة - مركز اللغات الأجنبية والترجمة التخصصية
المؤلف الرئيسي:	طاهر، حامد
المجلد/العدد:	ج 1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1983
الشهر:	شوال - بولية
الصفحات:	97 - 114
رقم MD:	144689
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo, AraBase
مواضيع:	الأخلاق الإسلامية، التراجم، المذاهب الإسلامية، المذهب الظاهري، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، 384-456 هـ. ، الفقه الإسلامي، المحبة، السير، العقل، مجالس العلم، الحكم و الأمثال، المذاهب الأخلاقية، السفسطائيون، الأخلاق المسيحية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/144689

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

طاهر، حامد. (1983). التجربة الأخلاقية عند ابن حزم الأندلسي. دراسات عربية وإسلامية، ج 1، 97 - 114. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/144689>

إسلوب MLA

طاهر، حامد. "التجربة الأخلاقية عند ابن حزم الأندلسي." دراسات عربية وإسلامية ج 1 (1983): 97 - 114. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/144689>



التجربة الأخلاقية

د. حامد طاهر

ابن حزم أحد أعلام الفكر الأندلسي (توفي سنة ٤٥٦ هـ) وهو شخصية متعددة المواهب ، فهو فقيه ، وأصولي ، ومؤرخ ، ومنطقي ، ومحدث ، ومصلح اجتماعي ، ومحلل نفسي ، وشاعر .. وقد أثبت كفاءته في كل الميادين التي كتب فيها ، وبرهن بالتالي على سمة التواصل بين فروع الثقافة الإسلامية .

ففي مجال الفقه تبني المذهب الظاهري ، وأصبح علما عليه ، بل كان أكبر المدافعين عنه في العالم الإسلامي كله . وله في هذا المجال كتاب « المحلى » (عشرة أجزاء) وفي أصول الفقه ترك لنا كتابه القيم « الأحكام في أصول الأحكام » (٤ أجزاء) . وفي التاريخ العربي ألف كتابا موثقا عن أنساب العرب ، أما في علم الحديث فقد جمع كل الأحاديث والروايات التي تتصل بحجة الوداع التي قام بها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قبل وفاته . وفي مجال مقارنة الأديان كتب مؤلفا يعتبر من أهم المصادر في هذا المجال بعنوان « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وفي مجال المنطق قام بمحاولة تلخيص منطق أرسطو بطريقة متفردة عن كل من سبقوه في كتاب بعنوان « التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالألفاظ العامة والأمثلة الشرعية » وفي مجال الإصلاح الاجتماعي والتحليل النفسي ترك لنا ابن حزم كتابه النادر « طوق الحمامة » الذي يتناول فيه تحليل ظاهرة الحب ، من وجهة النظر الإسلامية ، والذي ترجم الى معظم لغات العالم .

ومن بين الروائع الكثيرة التي تركها ابن حزم توجد رسالة صغيرة الحجم بعنوان « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » (١) .

(١) حققها وقدم لها بدراسة ممتازة الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي . دار المعارف ١٩٨١ وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى دراستنا . (م ٧ - دراسات عربية)

يقول مطلعها :

« أما بعد ، فإننى جمعت فى كتابى هذا معانى كثيرة ، أفادنيها واهب التمييز ، تعالى ، بمرور الأيام ، وتعاقب الأحوال ، بما منحنى عز وجل ، من التهمم بتصاريف الزمان ^(١) ، والاشراف على أحواله ، حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه ، على جميع اللذات التى تميل اليها أكثر النفوس ، وعلى الازدياد من فضول المال ، وزمت كل ما سبرت ^(٢) من ذلك بهذا الكتاب ، لينفع الله به من يشاء من عباده ، ممن يصل اليه ، بما أتعبت فيه نفسى ، وأجهدتها فيه ، وأطلت فيه فكرى ، فيأخذه عفوا ، وأهديته اليه هنيئا ، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال ، وعقد الأملاك ، اذا تدبره ، ويسره الله ، تعالى ، لاستعماله ، وأنا راج فى ذلك من الله تعالى ، أعظم الأجر لنيتى فى نفع عباده ، واصلاح ما فسد من أخلاقهم ، ومداواة نفوسهم » ^(٣) .

والتأمل فى هذه المقدمة يمكنه أن يقف على عدة عناصر منهجية تتميز بها جميع كتابات ابن حزم تقريبا . منها : تحديد مصدر المادة العلمية التى ضمنها المؤلف كتابه ، وهى هنا عبارة عن تجاربه الشخصية ، وتأملاته الخاصة فى الحياة والناس من حوله . ومنها : بيان أهمية الموضوع الذى يتناوله ، وأنه أفضل من جميع اللذات التى تميل اليها أكثر النفوس ، وأعلى من كنوز المال ، وعقد الأملاك ، ومنها : الاشارة الى الجهد المبذول فى هذا العمل ، وأنه قد استغرق أكثر عمر المؤلف ، وشغل جانبا هاما من تفكيره ومراجعته ، ولا شك فى أن عبارته « حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى » تدل بوضوح على أن هذا الكتاب يأتى — من الناحية التاريخية — فى الجزء الأخير من قائمة مؤلفات ابن حزم . ثم ان من

(١) التهمم بتصاريف الزمان : الاهتمام بأحواله المختلفة .

(٢) زمت كل ما سبرت : جمعت أو قيدت كل ما اختبرته .

(٣) الأخلاق والسير ، ص ٨٣ — ٨٥ .

أهم العناصر المنهجية أيضا : ذكر الغرض من التأليف ، وهو أن يضع كتابا مركزا يحتوى على مجموعة من التجارب والنصائح الأخلاقية لكى يتدبرها القارئ ، فقد يوفقه الله تعالى الى استعمالها فى سلوكه • وأخيرا فان الدافع وراء هذا العمل ، لم يكن كما هو الحال لدى كثير من المؤلفين القدماء — تقربا الى عطف سلطان ، أو تحقيقا لرغبة صديق عزيز ، وانما هو كما يحدده ابن حزم : رجاء فى أجر عظيم من الله تعالى ، لأن نية المؤلف انما هى لنفع الناس ، واصلاح ما فسد من أخلاقهم ، ومداواة نفوسهم •

وهكذا فنحن أمام محاولة ، فى المجال الأخلاقى ، تتجه الى كل انسان ، يمكنه أن يقيس بنفسه مدى نجاحها أو فشلها بمجرد ملاحظة رد الفعل الذى يحدث من تأثيرها فيه •

ثم بعد المقدمة ، تتوالى فصول الكتاب ، التى تبلغ ١٢ فصلا ، مصدرة بالعناوين التالية :

— فصل فى مداواة النفوس واصلاح الأخلاق •

— باب عظيم من أبواب العقل والراحة •

— فصل فى العلم •

— فصل فى الأخلاق والسير •

— فصل فى الاخوان والصداقة والنصيحة •

— فصل فى أنواع المحبة •

— فصل فى أنواع صباحة الصور •

— فصل فيما يتعامل الناس به ، وفى الأخلاق •

— فصل فى مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة •

— فصل فى غرائب أخلاق النفس •

— فصل فى تطلع النفس الى ما يستر عنها من كلام مسموع ، أو شىء مرئى ، أو الى المدح وبقاء الذكر •

— فصل فى حضور مجالس العلم •

ولسنا نميل الى اعتبار هذه العناوين من وضع ابن حزم نفسه ، ويحتمل أن تكون من وضع بعض تلاميذه ، أو نساخ كتبه • ويلاحظ أنها لا تعبر بدقة عما يوجد فى داخل الفصول ، بل يمكن القول بأن هذه العناوين ، بالاضافة الى عنوان الكتاب نفسه ، قد أساءت كثيرا لمضمون الكتاب ، وحولت أنظار القراء عن بعض نظرياته المبتكرة ، وأفكاره العميقة ، وقصرته على كونه مجرد كتاب عادى فى الحكم والمواعظ الأخلاقية • الأفضل اذن أن ندع عناوين الفصول جانبا ، وأن نتناول ، بقدر من التأمل والتحليل ، محتوى الفصول ذاتها ، حتى نتعرف على تلك المحاولة الفريدة التى قدمها ابن حزم فى مجال الأخلاق الاسلامية •

ولكى نتبين بوضوح محتوى الرسالة الأخلاقية التى أراد ابن حزم أن يوجهها للمعاصرين ، وللأجيال اللاحقة له ، يمكننا تصنيفها فى الأقسام الثلاثة الآتية :

أ — الاعترافات الأخلاقية •

ب — مجموعة الحكم •

ج — نظرية جديدة فى الأخلاق •

وفى رأينا أن هذه الأقسام الثلاثة تمثل عناصر التجربة الأخلاقية التى مر بها ابن حزم أصدق تمثيل • فهناك أولا الاعترافات الأخلاقية وهى تعبر عن مرحلة البحث واكتشاف حقيقة الذات • وفيها توصل ابن حزم الى بعض جوانب النقص فى شخصيته ، وبالتحديد ، والاعلان

عنها ينتقل ابن حزم من انسان منفرد يسعى الى اصلاح نفسه ، الى
مصلح أخلاقى يهتم بخير الآخرين • يقول : « ولهذا يجب أن تؤرخ
الفضائل والردائل ، لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ، ويرغب
فى الحسن المنقول عن تقدمه ، ويتعظ بما سلف » ^(١) ثم هناك ثانياً
مجموعة الحكم وهى عبارة عن خلاصة مركزة لخبرة عميقة فى الحياة ،
واحتكاك مباشر مع المجتمع • وسوف نختار من بينها بعض الأمثلة التى
تكفى لوضع ابن حزم بين مصاف الحكماء العالمين الذين برزوا فى هذا
اللون • وأخيراً تأتى النظرية الجديدة التى يقدمها ابن حزم فى مجال
الهدف النهائى من الحياة الأخلاقية ، وهى نظرية « طرد الهم » التى
يمكن أن تحل محل نظرية « السعادة » اليونانية ، والتى تبناها بعض
فلاسفة المسلمين بالفعل ، ولكنها ظلت عرضة للكثير من أوجه النقد ،
أما نظرية ابن حزم فيؤكد لنا أنها صالحة للتطبيق على الانسان فى كل
زمان ومكان •

أولاً : اعترافات ابن حزم :

إذا كانت الاعترافات الذاتية نادرة فى تاريخ الفكر الانسانى ، فأندر
منها الاعترافات الأخلاقية • ومرجع ذلك لسبب بسيط : هو أنه إذا كان
الخطأ العقلى مسموحاً به لدى طبقة المفكرين ، فإن الخطأ الأخلاقى
مرفوض تماماً من المجتمع كله • ألسنا نسمع مثلاً أن (الاعتراف بالخطأ
فضيلة) والمفهوم طبعاً هو الخطأ العقلى ، ويعلمنا رسول الله ، صلى الله
عليه وسلم ، أن المسلم إذا اجتهد برايه فأصاب فله أجران ، فإن أخطأ
فله أجر واحد • وهذا معناه أنه مثاب على حالته الصواب والخطأ ،
والمقصود أيضاً هو الشخص الذى يتصدى لإصدار الفتوى فى مسألة
دينية • لكننا على العكس من ذلك ، لا نكاد نسمع شيئاً عن أن تصريح
الانسان بأخلاقه السيئة يحتوى على أية فضيلة • بل إن الاسلام يحض

(١) الاخلاق والسير ، ص ١٩٥ .

المسلم على أن يدارى سيئاته (إذا بليتقم فاستتروا) وكأنما يقصد بذلك أن يحصر الرذيلة في أضيق نطاق ممكن ، وبهذا يصبح السكوت عنها نوعا من مقاومتها .

غير مقبول اذن أن يكون التصريح بالعيوب موضع افتخار وتحد للمجتمع لأنه يعود بالضرر المؤكد على النشء ، الذين يميلون بطبعهم الى محاكاة ما يوجد أمامهم من مظاهر الشذوذ والغرابة ^(١) . لكن أن تذكر العيوب الأخلاقية بهدف أن يتعظ بها الآخرون ، حتى يدركوا أن من يتصدى لوعظهم ، واصلاح أخلاقهم بشر مثلهم ، يتعرض لما يتعرضون له من لحظات الضعف الانسانى ، وتتسلط عليه من الأهواء والنوازع فى بعض الأحيان ما يتسلط عليهم . فهذا شئ مختلف ، بل انه اسلوب ممتاز فى جذب النفوس الى الموعظة الحسنة ، والسيرة المستقيمة . يقول ابن حزم :

« كانت فى عيوب ، فلم أزل بالرياضة ، واطلاعى على ما قالت الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين فى الأخلاق ، وفى آداب النفس ، أعانى مداواتها .. حتى أعان الله ، عز وجل ، على أكثر ذلك بتوقيقه ومنه .

وتمام العدل ، ورياضة النفس ، والتصرف بأزمة الحقائق : هو الاقرار بها ، ليتعظ بذلك متعظ يوما ان شاء الله .

— فمنها : كلف فى الرضا ^(٢) ، وافراط فى الغضب :

(١) من المعروف ان نسبة الجريمة تزيد كثيرا بين الشباب الذين يشاهدون أفلام العنف والجريمة . وقد ثبت بالاحصائيات أن معظم الجرائم التى يرتكبها هؤلاء الشباب تحاكى الى حد كبير — وأحيانا بصورة حرفية — ما يشاهدونه فى السينما والتلفزيون .

(٢) يعنى رغبة شديدة فى أن يرضى عنه الآخرون .

فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك اظهار الغضب جملة
بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار ، وتحملت
من ذلك ثقلا شديدا وصبرت على مغص مؤلم ، كان ربما أمرضنى ••

وأعجزنى ذلك فى الرضا ، وكأنى سامحت نفسى فى ذلك ، لأنها تمثلت
أن ترك ذلك لؤم •

— ومنها : دعاية غالبية :

فالذى قدرت عليه فيها امساكى عما يغضب الممازح ، وسامحت نفسى
فيها اذ رأيت تركها من الانغلاق ، ومضاهيا للكبر •

— ومنها : عجب شديد :

فناظر عقلى نفسى بما يعرفه من عيوبها ، حتى ذهب كله ، ولم يبق
له ، والحمد لله ، أثر • بل كلفت نفسى احتقار قدرها جملة ، واستعمال
التواضع •

— ومنها : حركات كانت تولدها غرارة الصبا ، وضعف الأعضاء :
فقصرت نفسى على تركها فذهبت •

— ومنها محبة فى بعد الصيت والعلبة :

فالذى وقفت عليه من معاناة هذا الداء الامساك فيه عما لا يحل
فى الديانة ، والله المستعان على الباقي •••

— ومنها افراط فى الأنفة ، بغضت الى انكاح المحارم ^(١) جملة
بكل وجه ، وصعبت ذلك فى طبيعتى •

(١) يعنى تزويج بناته وأخوانه للآخرين •

وكأنى توقفت عن مغالبة هذا الافراط الذى أعرف قبجه لعوارض
اعترضت على ، والله المستعان •

— ومنها حقد مفراط :

قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره ، وغلبته على اظهار جميع
نتائجه ، وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه ، وأعجزنى معه أن أصادق
من عادانى عداوة صحيحة أبدا (١) •

— وأما سوء الظن •

فيعده قوم عيبا على الاطلاق ، وليس كذلك ، الا اذا صاحبه مالا يحل
في الديانة ، أو الى ما يقبح في المعاملة ، والا فهو حزم ، والحزم فضيلة (٢) •

— وأما الزهو ، والحسد ، والخيانة • فلم أعرفها بطبعى قط ،
وكأننى لا حمد لى فى تركها ، لمنافرة جبلتى (طبيعتى) اياها « (٣) •

وهكذا يمثل هذا الوضوح والصراحة ، يقدم ابن حزم نفسه لنا
عارية من الأفتنة التى يندر أن يخلعها الانسان أمام الآخرين • فاذا نظرنا
الى هذه الاعترافات من وجهة النظر العلمية الخالصة ، وجدنا ان
ابن حزم قد وصل الى مرحلة عالية من التحليل النفسى الذاتى ، استبطن
فيه مكونات شخصيته ، وكشف عن نوازعها واتجاهاتها ، ووضع يده على
مواطن العيوب ، وأوجه النقص •

ومن المعروف أن الطبيب النفسانى لا يفعل مع مريضه أكثر من أن
يصحبه فى رحلة عميقة داخل ذاته ، حتى يكتشفا فى النهاية معا أسباب
العقد النفسية التى عندما تترك بدون كشف تصبح مرضا خطيرا يفسد

(١) أى صعب على مصادقة اعدائى باخلاص كامل •

(٢) الأخلاق والسير ص ١٢٩ — ١٣٤ •

(٣) السابق : ص ١٤٠ — ١٤١ •

التوازن ، ويحطم الشخصية • أما اذا تم اكتشافها وجرى الحديث عنها فان الأمر يختلف ، وبالتدريج يتخلص منها المريض ، وتبدأ عناصر شخصيته السوية تتوازن داخل المجتمع ، ويصبح أكثر قدرة على التأقلم فيه من جديد •

ومع ذلك ، فنحن هنا أمام تجربة رائدة ، يكتشف فيها صاحبها بنفسه جوانب النقص في شخصيته ، ثم يعلنها للآخرين بقصد تحذيرهم منها ، وارشادهم الى أفضل الطرق لمعالجتها •

ثانيا : مجموعة الحكم :

اذا كانت الأمثال (جمع مثل) هي خلاصة فلسفة عامة الناس ، ومستودع تجاربهم الطويلة ، فان الحكم (جمع حكمة) يمكن اعتبارها خلاصة فلسفة المفكرين • وهي تتمثل عادة في عبارات مركزة ، ولكنها قوية ومعبرة ، وتحمل من المعانى أكثر مما فيها من الألفاظ ، ومن المعروف أنه لا يقدر على صياغتها سوى قلة قليلة من قادة الفكر ، وذوى الرأى الثاقب ، وأهل الخبرة الطويلة (١) •

ومما يلاحظ بصفة مبدئية على هذا اللون من الفلسفة المختصرة أنه يوجد تقريبا لدى كل الشعوب ، وأن هذه الشعوب تكاد تلتقى على كثير من مبادئه وقيمه • والسبب بسيط : فهو عبارة عن تسجيل ملاحظات العقل الانسانى لما يمر به من تجارب ، قد يبدو من حيث الظاهر أنها مختلفة ومتنوعة ، ولكنها فى الحقيقة متشابهة • فالحب والعطف والوفاء تماما مثل الكراهية والقسوة والخيانة حقائق ثابتة على مر العصور ، ورغم اختلاف الأماكن ، ولكن مظاهرها الخارجية هي التى تتعدد وتتنوع وتختلف •• فاذا أضفنا لذلك أن العقل الانسانى عندما يمر بأحدى

(١) وهى بعينها التى يقصدها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فى قوله « أوتيت جوامع الكلم » أى الكلمات القليلة العدد الجامعة لصنوف الحكمة •

هذه التجارب ، فانه قد يخدع أولا بمظهرها الخارجى ، وقد يقف طويلا لديه ، ولكنه اذا تعمق التجربة ، وحاول اكتشاف جوهرها وجد نفسه وجها لوجه أمام حقيقتها الثابتة التى لا تتغير .

وقد ورث المسلمون حضارات الأمم السابقة عليهم ، واستوعبوا معظم الثقافات التى كانت منتشرة فى أرجاء العالم القديم ، ولا شك أنهم وقفوا على هذا اللون من الفلسفة أو الحكمة المركزة . وقد أعجبوا به ، ونقلوا الكثير منه الى اللغة العربية ، فصانوه بذلك من الضياع ^(١) . لكن جهودهم لم تقتصر على ذلك ، فقد ساهموا هم أيضا فيه ، ومازال تراثهم فى هذا المجال بحاجة الى الجمع والتصنيف ، فضلا عن دراسته وتحليله . وحسبنا هنا الآن أن نتوقف لدى ابن حزم ، الذى ترك لنا فى كتابه الصغير الحجم الذى نعتمد عليه فى هذه الدراسة ، عددا لا بأس به من الحكم الأخلاقية ، والتى سوف نقطف منها مجموعة كافية فى دلائلها لاثبات أننا أمام مفكر عميق ، وفيلسوف خبر الحياة ، واستخلص من أحداثها المتغيرة والمنقطعة موقفا أكثر ثباتا واستمرارا .

— لا مرؤة لمن لا دين له ^(١) .

— العاقل لا يرى لنفسه ثمنا الا الجنة ^(٢) .

— من قدر أن يسلم من طعن الناس وغيوبهم فهو مجنون ^(٣) .

— أنظر فى المال والحال والصحة الى من دونك ، وانظر فى الدين والعلم والفضائل الى من فوقك ^(٤) .

(١) انظر مختار الحكم ومحاسن الكلم للبشر بن أبى فاتك (القرن الخامس الهجرى) تحقيق د . عبد الرحمن بدوى . ط ثانية ، بيروت ١٩٨٠ .

(٢) الأخلاق والسير ص ٩٣ .

(٣) السابق ، نفس الصفحة .

(٤) الأخلاق والسير ص ٩٤ .

(٥) السابق ، ص ١٠٥ .

- إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها (١) .
- طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها (٢) .
- أول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر ، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به ، وأول من تهون الزانية في عينه الذي يزنى بها (٣) .
- كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه (٤) .
- لا يغتر العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته ، فكل واحد صديقه يومئذ (٥) .
- ثق بالمتدين وان كان على غير دينك ، ولا تثق بلمستخف وان أظهر أنه على دينك (٦) .
- نوار الفتنة لا يعقد (٧) .
- لا يخلو مخلوق من عيب ، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت (٨) .
- استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك من استهان بسيئاتك (٩) .
- العتاب للصديق كالسبك للسبيكة ، فإما أن تصفوا وإما أن تطير (١٠) .

(١) السابق ص ١١٣ .

(٢) السابق ص ١١٤ .

(٣) السابق ص ١١٨ .

(٤) السابق ص ١١٩ .

(٥) السابق ص ١٢٠ .

(٦) السابق ص ١٢٠ .

(٧) السابق ص ١٢٠ ، ويعنى أن زهور الفتنة لا تخرج ثمرا .

(٨) السابق ص ١٤٢ .

(٩) السابق ص ١٤٣ .

(١٠) السابق ص ١٤٣ .

— لا تنصح على شرط القبول ، ولا تشفع على شرط الاجابة ،
ولا تهب على شرط الاثابة ، لكن على سبيل استعمال الفضل ، وتأدية ما عليك
من النصيحة ، والشفاعة وبذل المعروف (١) .

— قد يكون المرء صديقا لمن ليس صديقه (٢) .

— الخطأ في الحزم خير من الخطأ في التضييع (٣) .

— أشد الناس استعظاما للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالا
لها بفعله (٤) .

— اقنع بمن عندك يقنع بك من عندك (٥) .

— الطمع سبب كل هم (٦) .

ثالثا : نظرية طرد الهم :

لكى ندرك مدى الجدة في نظرية ابن حزم لابد من القاء نظرة سريعة
على المذاهب الأخلاقية التى سبقته ، مركزين بصفة خاصة على الغاية
أو الهدف النهائى من الحياة الأخلاقية .

فى الفكر الاغريقى ، نجد أن غاية الأخلاق لدى السفسطائيين تنحصر
فى تحقيق اللذة الفردية لكل انسان . أما سقراط فقد جعل هذه
الغاية هى السعادة . ولكى نصل الى السعادة لابد أن نمارس الفضيلة ،
التى تنتج عن المعرفة . أى أنه لكى يكون الانسان فاضلا لابد أن يكون

(١) السابق ص : ١٤٧ .

(٢) السابق ص : ١٤٨ .

(٣) السابق ص : ١٧١ .

(٤) السابق ص : ٢٣٦ .

(٥) السابق ص : ١٧٤ .

(٦) السابق ص : ١٧١ .

عالما • ولا شك في أن هذا المفهوم يقصر الفضيلة ، وبالتالي السعادة ، على قلة قليلة من المجتمع (١) •

كذلك قرر أفلاطون أن غاية الحياة الأخلاقية هي السعادة لكنه يجعلها تقتصر بالعدالة أى الاعتدال في الأمور ، ولا يتحقق الخير الأسمى للانسان الا اذا أدرك عالم المثل ، الذى يعتبر عالما الأرض نسخة مشوهة منه (٢) •

ولدى أرسطو ، الذى كتب مؤلفا مستقلا في الأخلاق ، أصبحت الأمور أكثر تحديدا • فقد جعل الخير الأسمى هو غاية الأخلاق • ومفهومه أنه الخير الذى يطلبه الناس جميعا لذاته ، ولا يرجون من ورائه شيئا آخر ، وقد حدده أيضا بأنه السعادة • وتتحقق السعادة عنده بالتأمل العقلى • أما الفضيلة فقد عرفها بأنها : « وسط بين طرفين » هما التفريط والافراط • ومعنى ذلك أن تكون الشجاعة مثلا حالة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الاسراف والتقتير • • وهكذا (٣) •

وفي العصر الهليني ظهرت بعض المذاهب الأخلاقية التى انبثقت بالضرورة عن مذاهب فكرية وفلسفية مختلفة ، هى الابيقورية (اتباع ابيقور) والرواقية ، ومذهب الشك • وعلى الرغم من الخلافات الدقيقة بينها ، فانها تلتقى جميعا في حصر السعادة في الجانب العقلى أو الروحى ، وإهمال جانب الجسد ، واحتقار الحياة المادية بكل أنواعها • ويلاحظ أن مفهومها للسعادة يشيع فيه الاتجاه السلبي بمعنى أن الانسان يبتعد عن المجتمع ليسلم من شروره ، وينصرف عن الحياة المادية ليتخلص من مصائبها (٤) •

Charles Warner, La Philosophie Grecque p. 42, 54. Payot, Paris 1969.

(١)

(٢) السابق ، ص ٨٢ •

(٣) السابق ، ص ١٢١ ، ١٤٧ •

(٤) السابق ، ص ٢٣٣ •

وقد ظل هذا الاتجاه الفكرى والأخلاقى سائدا بين أصحاب هذه المذاهب حتى ظهرت المسيحية ، واستقرت ، فتغلب مفهومها للحياة الأخلاقية • وهو مفهوم يقوم أساسا على أن السعادة التى يسعى إليها الانسان فى هذه الحياة سعادة وهمية ، لأن السعادة الحقّة انما هى فى ملكوت السماوات • وهذه النقطة هامة جدا لأنها تفصل بصورة حاسمة بين التصورات الاغريقية وما تلاها وبين التصور المسيحى • ولا شك فى أن حياة السيد المسيح قدمت للمفكرين الأخلاقيين نموذجا رائعا فى شتى جوانبه • لكنهم ركزوا بصفة خاصة على ما جاء فى تعاليمه من التواضع ، والمسامحة ، والعفو عن الاساءة (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) وهذا منتهى النبل الانسانى فى معاملة المسء (١) •

لكن الأخلاق المسيحية تبدأ من مسلمة أخرى أيضا هى أن الانسان فى الواقع يعيش نتيجة خطيئته الأولى أو الأصلية ، لذلك فانه مطالب منذ اللحظة الأولى لميلاده بأن يكفر عن هذه الخطيئة ، ولهذا فانه يعيش محملا بعقدة ذنب ، لم يرتكبه ، ومدركا أنه ذو طبيعة رديئة ، يجب عليه أن يصارعها باستمرار • وهو يتسلح فى خلال ذلك بالصلاة ، واخلاص النوايا (تحتل النية مكانة أكبر بكثير من الفعل) والتحرر من الأهواء والنوازع البشرية ، مع الاعتقاد بأن الانسان لن يمتلك السعادة قط على هذه الأرض المليئة بالشرور والخطايا ، وانما فقط يمكنه أن يحس بها ، ولا ينتج هذا الا من الأمل فى عفو الله ورحمته التى تسع جميع المذنبين (٢) •

ومن المعروف أن فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن مسكويه والغزالى قد تبنا بعض النظريات الاغريقية الخاصة بالهدف الأخير من الأخلاق ، واختاروا فكرة السعادة باعتبارها هى الغاية الأسمى التى يسعى الناس

(١) Pierre Adnès, La théologie Catholique, p. 84, Paris 1967.

(٢) انظر : الدكتور توفيق الطويل ، فلسفة الاخلاق ص ١٣٠ وما بعدها ط ثانية ١٩٧٦ القاهرة .

جميعا الى بلوغها ، ويطلبونها لذاتها أى دون أن تكون هى الأخرى وسيلة لغرض آخر ^(١) .

لكن ابن حزم يطالعنا فى كتابه « الأخلاق والسير » ^(٢) بنظرية جديدة حول غاية الأخلاق ، وهو يحددها فى مصطلح جديد تماما هو « طرد الهم » ويؤكد أنه قد توصل بخبرته الطويلة وتجاربه الى أن هذا الغرض يصلح أن يكون هدفا أسمى للحياة الأخلاقية . وللتدليل على صحة رأيه ، يؤكد ابن حزم أنه وجد أن الناس جميعا على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم يسعون الى بلوغ هذا الهدف ، ويتفقون على أنه هو غرضهم ، فى حين أن أى هدف آخر — بما فيه السعادة — يمكن أن يكون محل خلاف بينهم . يقول ابن حزم :

« تطلبت غرضا يستوى الناس كلهم فى استحسانه ، وفى طلبه ، فلم أجده الا واحدا ، وهو طرد الهم . فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا فى استحسانه فقط ، ولا فى طلبه فقط ، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم ، وتباين همهم وارادتهم لا يتحركون حركة أصلا الا فيما يرجون به طرد الهم ، ولا ينطقون بكلمة أصلا الا فيما يعانون به ازاحته عن أنفسهم : فمن مخطئ وجه سبيله ، ومن مقارب للخطأ ، ومن مصيب وهو الأقل من الناس ، فى الأقل من أموره .

فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها ، مذ خلق الله تعالى العالم الى أن يتناهى عالم الابتداء ^(٣) ويعاقبه عالم الحساب على ألا يعتمدوا بسعيهم شيئا سواه ، وكل غرض غيره ففى الناس من لا يستحسنه .

اذ فى الناس من لا دين له فلا يعمل للأخرة .

D. M. Donaldson, Studies in muslim ethics, p. 97, 98. London 1953. [١]

(٢) تستغرق الصفحات ٨٧ — ٩٣ .

(٣) المقصود عالم الدنيا .

وفى الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ، ولا الأمن ، ولا الحق •

وفى الناس من يؤثر الخمول بهواه وارادته على بعد الصيت •

وفى الناس من لا يريد المال ، ويؤثر عدمه على وجوده ، ككثير من الأنبياء عليهم السلام ، ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة •

وفى الناس من ييغض اللذات بطبعه ، ويستنقص طالبها ، وفى الناس من يؤثر الجهل على العلم ، كأكثر من ترى من العامة •

وهذه هى أغراض الناس التى لا غرض لهم سواها •

وليس فى العالم مذ كان الى أن يتناهى أحد يستحسن لهم ، ولا يريد طرده عن نفسه » •

هذا — اذا أمكن القول — هو الشق الأول من نظرية ابن حزم • وقد حدد فيه بوضوح الهدف الأساسى والنهائى من الحياة الأخلاقية ، مؤكدا على عمومية هذا الهدف أو عالميته ، وصلاحيته لكل زمان ومكان •

لكن يبقى النصف الثانى ، وهو يتمثل فى توجيه الانسان الى تحقيق هذا الهدف ، وارشاده الى الطريق المؤدية اليه • وفى هذا يقول ابن حزم :

« فلما استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى هذا السر العجيب ، وأثار الله تعالى لفكرى هذا الكنز العظيم ، بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة الى طرد الهمة ، الذى هو المطلوب للنفس ، الذى اتفق جميع أنواع الانسان ، الجاهل منهم والعالم ، والصالح والطالح ، على السعى له ، فلم أجدها الا : التوجه الى الله ، عز وجل ، بالعمل للأخرة •

والا ، فانما طلب المال طلابه ليُطردوا به هم الفقر عن أنفسهم •

وانما طلب الصوت (الصيت) من طلبه ليطرده به عن نفسه هم الاستعلاء عليها •

وانما طلب اللذات من طلبها ليطرده بها عن نفسه هم فوتها •

وانما طلب العلم من طلبه ليطرده به عن نفسه هم الجهل •

وانما هش الى سماع الأخبار ومحادثة الناس ، من يطلب ذلك ليطرده بها عن نفسه هم التوحيد ، ومغيب أحوال العالم عنه •

وانما أكل من أكل ، وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، ولبس من لبس ، ولعب من لعب ، واكتن (استتر في منزل) من اكتن ، وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتودع من تودع ... ليطردوا عن أنفسهم أصداد هذه الأفعال وسائر الهموم •

وفي كل ما ذكرنا ، لمن تدبر ، هموم حادثة لابد لها من عوارض تعرض في خلالها ، وتعذر ما يتعذر منها ، وذهاب ما يوجد منها ، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة ، وأيضا نتائج سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك ، من خوف منافس ، أو طعن حاسد ، أو اختلاس راغب ، أو اقتناء عدو ، مع الذم والاثم ، وغير ذلك •

ووجدت العمل للأخرة سالما من كل عيب ، خالصا من كل كدر . موصلا الى طرد الهم على الحقيقة •

ووجدت العامل للأخرة ان امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم ، بل يسر ، اذ رجأؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطالب ، وزائد في الغرض الذي اياه يقصد •

ووجدته ان عاقبه عما هو بسبيله عائق لم يهتم ، اذ ليس مؤاخذا بذلك ، فهو غير مؤثر في ما يطلب •

ورأيته ان قصد بالأذى سر ، وان نكبته نكبة سر ، وان تعب فيما
سلك فيه سر ، فهو في سرور متصل أبدا ، وغيره بخلاف ذلك أبدا •

وأخيرا يلخص ابن حزم نظريته المبتكرة بجانبها اللذين يتضمنان
الهدف والوسيلة في قوله :

« فاعلم أنه مطلوب واحد ، وهو طرد الهم •

وليس له الا طريق واحد ، وهو العمل لله تعالى •

فما عدا هذا فضلال وسخف » •